الأب يوسف قوشاقجي كاهن من حلب، رفَد عملَه الرعويّ بثقافة واسعة وأفرغ جهودًا ملحوظة في سبيل رسالة القلم. عُرف خاصّة بنقله، مع الأب صبحي حموي اليسوعيّ، كتب العهد الجديد إلى العربيّة، وله مصنَّفات في الأدب الشعبيّ والأمثال، ومقالات عديدة دينيّة واجتماعيّة وأدبيّة ظهر معظمها في دوريّات مدينته الشهباء.

منشورات:
دار المشرق - ص.ب: ٩٤٦
بيروت، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت. لبنان

Ex Libris

George bar Anton d'beth Kiraz

1995

طبع هذا الكتيّب بمساعدة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

موسوعة
المعرفة المسيحية

القدّيسون

١

القدّيس سِمعان العمُوديّ

بقلم
الأب يوسف قوشاقجي

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للاتين
بيروت، في ١٩/آب/١٩٨٩

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ١٩٨٩
دار المشرق ش م م - ص.ب. ٩٤٦ - بيروت

ISBN 2 - 7214 - 4576 - 6

التوزيع
المكتبة الشرقيّة، ص.ب. ١٩٨٦
بيروت، لبنان

تصميم الغلاف: **جان قرطباوي**

المقدّمة

سمعان العموديّ، ابن الشرق المسيحيّ، ابتكر في الربع الأوّل من القرن الخامس لونًا جديدًا من النِّسك، لا النِّسك في البرِّيَّة، شأن القدّيس أنطونيوس في صعيد مصر، بل النِّسك بين النّاس على رأس عمود، ليكون قريبًا من الله ومن الناس معًا، ووسيطًا بين السماء والأرض. صار عموده منارة للإيمان المسيحيّ على بعد نحو ٥٠ كيلومترًا من أنطاكية، التي فيها بشَّر بالإنجيل برنابا ونسيبُه بولس، وفيها سُمِّي تلاميذ السيّد المسيح أوَّل مرّة مسيحيّين (رسل ١١/٢٦). عاش سمعان على عمود بلغ ارتفاعه آخر الأمر ١٦ مترًا، أي ارتفاع بناء له أربع طبقات، كلّ منها ٤ أمتار، فقضى عليه ٣٧ سنة، أي أكثر من نصف حياته، ومات في ٢٦ تمّوز ٤٥٩، بعدما لفحته الشمس بحرِّها، وأصقعه البرد القارس، وغمره المطر كلَّما هطل، وغطّاه الثلج كلَّما تساقط. فتحدّى أشدّ قوى االطبيعة قسوةً على الإنسان، كأنَّه أصلب من صخر العمود الذي في ذروته قضى من السنين أكثر ممّا قضى السيّد المسيح في ربوع فلسطين. إنّه معجزة حيّة من معجزات الله، وبطل من

أبطاله الكبار. أراد أن يعبده عبادة صادقة وأن يهدي إليه الناس، بأن يكون على مثال السيّد المسيح الذي عاش وليس له ما يضع عليه رأسه (متّى ٨/ ٢٠)، فترك كلّ شيء ليُصلب مع المسيح ولا يحيا هو، بل يحيا المسيح فيه (غل ٢/ ١٩ - ٢٠). أُعجب به الناس. فكان رسول الله إليهم بكلامه من أعلى العمود وبسيرته، فهدى إليه عشرات بل مئات الألوف من الناس. واقتدى به مئات الشبّان فارتفعت أعمدة أخرى في جوار حلب وأنطاكية، وعلى ضفاف العاصي والفرات، وفي العراق ولبنان وفلسطين وقيليقية والقسطنطينيّة، وروسيا وغيرها حتّى القرن التاسع عشر. ففي ١٨٤٨ زار الرحّالة بروسي (Brosset) عموديًّا في جيورجيا، وذكر الشعراء العرب النسّاك كثيرًا في قصائدهم. حسبي أن أروي هذا البيت لأبي نواس:

برهبان الصوامع في ذراها
أقاموا ثمَّ في جهد وضيق

«قلعة سمعان»، حيث لا يزال شيء من عمود سمعان قائمًا، هي من أعظم المزارات العالميّة الدينيّة، والمعماريّة، والفنيّة. من جهّة الهندسة والنقوش قد يستغرب أهل عصرنا نمط عيش سمعان العموديّ ولا يستسيغونه، ولكنّه شهادة لا تُردّ على قوّة الإيمان الذي يقهر كلّ شيء في سبيل الله.

ترجم لسمعان العموديّ معاصر له ولد في السنة ٣٩٣،

أي بعده بأربع سنوات، وهو ثيودورطس القورشيّ الذي صار راهبًا ثمّ رسم أسقفًا وألَّف كتابًا نفيسًا عن الرهبان في السنة ٤٤٤ وسمعان حيٌّ يُرزق، وذهب إليه فزاره ورآه بأمّ عينيه واطّلع على أعماله وسمع كلامه. فما رواه ثمين جدًّا، جدير بالثقة، على غرابة ما فيه. وثيودورطس من أحسن أهل عصره ثقافة، وقد أوضح في مقدّمة كتابه، وقد سمّاه «تاريخ أحبّاء الله»، وأيضًا «حياة التقشّف» و«تاريخ الرهبان وسيرة القدّيسين»، انّه أراد أن ينقذ من النسيان الأعمال المجيدة التي قام بها أبطال الله ليطّلع عليها المسيحيّون من جيل إلى جيل، ويجدوا لهم فيها قدوة حسنة: «فمن الحيف أن تُدوَّن أعمال الأبطال في الحروب، وتُهمَل أعمال الأبطال الذين قهروا جسدهم ونافسوا الملائكة بالروح».

لله درّ الشاعر الفرنسي رمبو (Rimbaud) الذي قال: «إنّ المعارك الروحيّة هي أشدّ المعارك، وما أحوجنا إلى خوضها».

الأب يوسف قوشاقجي

مار سمعان الكبير

مولده ونشأته

بهذا الاسم عُرف القدّيس لتمييزه من قدّيسين آخرين حملوا الاسم نفسه. وقد وردت سيرته في الفصل السادس والعشرين من كتاب تيودورطس المذكور آنفًا حيث افتتح كلامه بقوله: «إنّ سمعان الشهير أُعجوبة المعمور العظيمة، يعرفه جميع أهل المملكة الرومانيّة، ويعرفه أيضًا الفرس والميديّون[1] والأحباش، وسار ذكره فبلغ الرحَّل من الأسكوتيّين[2]، فعلّمهم حُبَّه للتقشّف والحكمة. ومع أنّ لدى جميع الناس، كما يقال، شهودًا على معاركه التي يعجز المرء عن وصفها، فإنّي أهاب أن أرويها لئلاّ تبدو للأجيال الآتية حديث خرافة، عاريًا من كلِّ صحّة. فهناك أحداث تفوق الطبيعة البشريّة، في حين أنَّ الناس يُحبّون أن يقيسوا ما يُقال لهم بمقياس الطبيعة، فإذا رُوي شيء يفوق حدودها، بدا

(١) أقوام عاشوا في شمال غربي إيران.

(٢) شعب في شرق أوروبا وآسيا إلى الشمال.

الكلام لغير العارفين بالشؤون الإلٰهيّة كذبًا. ولكن لّما كانت الأرض والبحر ممتلئَين من المؤمنين الذين تربَّوا على الشؤون الإلٰهيّة، وعرفوا نعمة الروح الكامل القداسة، فإنّهم لن يشكّوا في أقوالي بل بالأحرى يؤمنون بها؛ لذا فسأروي الأخبار مرتاحًا واثقًا، وسأبدأ من الوقت الذي وُجِد فيه أهلاً لدعوة من العلاء».

إنّ هذا الاستهلال الفخم دليل على ما كان لسمعان من مكانة في نفوس أهل عصره، وعلى ما أتى به من أمور عظيمة. وهو يُظهر كيف أنّ تيودورطس تنبَّه سالفًا للصعوبة التي ستلقاها الأجيال الآتية في تقبّل أخبار سمعان لما فيها من غرابة، فكرَّر غير مرَّة أنّه كان شاهد عيان وسماع لما روى، وما من داعٍ لردّ شهادته، ومؤلَّفاته تشهد له بطول الباع في العلم والثقافة وحبّ الحقيقة.

مولد سمعان

ولد في السنة ٣٨٩ في قرية سيس، أو سيسا، على الحدود بين شمال موريا القديمة وقيليقية، وكأنّ تلك الأرض أرض مقدّسة، فإنّ ناسك العصر الحديث، الأب شارل دي فوكو، قضى السنة ١٨٩٠ في مَحبَسة للرهبان في شيخله، وهي على بعد نحو ٢٥ كيلومترًا من مسقط رأس سمعان الكبير. رُزق

أبوا سمعان عدّة أولاد، °فلم يعش سواه وصبيٌّ آخر اسمه شمشِ، صار هو أيضًا راهبًا ومات قبله بوقت كثير. وكان والداه مسيحيَّين صالحَين، فقدَّماه للعماد وهو طفل صغير في المهد. ومع أنّهما كانا على شيء من اليسر، فقد علَّماه رعاية المواشي، من غير أن يعلّماه شيئًا من القراءة والكتابة. وتكلَّم السريانيّة، وهي لغة وطنه ولهجة من اللغة الآراميّة لغة السيّد المسيح، وألَمَّ باليونانيّة لّما دخل الرهبانيّة، وكانت منتشرة في بلاد الشرق في تلك الأيّام.

كتب ثيودورطس: «تعلَّم أوّل الأمر رعاية المواشي، لكي يكون على مثال الرجال العظام: يعقوب كبير الآباء، ويوسف العفيف، والمشترع موسى، والملك النبيّ داود، والنبيّ ميخا، وسائر الرجال الذين تلقّوا وحيَ الله. وذات يوم تساقط الثلج غزيرًا، فاضطرّت الخراف إلى البقاء في الزريبة ممّا جعله ينتهز هذا الوقت من الفراغ ليمضي مع أبويه إلى هيكل الله. وقد سمعتُه يروي الخبر بلسانه الطاهر. قال إنّه سمع قول الإنجيل: «طوبى للذين يبكون ويحزنون، والويل للذين يضحكون». وقوله: «إنّ أصحاب النفوس الطاهرة أهل لأن يغبطهم الناس[1] إلخ...» فسأل بعض الحضور ماذا يجب

(١) متّى ٥/٥ ـ ٨، لو ٦/٢١ ـ ٢٥.

على الإنسان أن يفعل ليحصل على كلّ من هذه الخيرات، فأشار عليه بالحياة النِّسكيّة وبيَّن له سموّ الحكمة.

حلم فيه نبوءة

«وقال لي إنّه بعدما تلقّى بذور كلام الله وأحسن دفنها في أعماق نفسه، أسرع إلى معبد للقدّيسين الشهداء في الجوار، فجثا فيه على ركبتيه ووضع جبهته على الأرض، وسأل الذي يريد خلاص الناس أجمعين أن يدلَّه إلى الطريق المؤدّي إلى التقوى حقًّا، واستمرّ على هذه الحال برهة، فاستغرق في نوم عذب المذاق ورأى هذه الرؤيا. قال:

خُيِّل إليَّ أنّي أحفر أساسًا، ثمّ سمعت امرأً قائمًا هناك يقول لي إنّه يجب عليَّ أن أُعمّق الحفرة، فأمعنت في التعميق كما أمرني، وحاولتُ أيضًا أن أستريح، ولكنّه أمرني مرّة أخرى أن أحفر من غير أن أكفّ عن الجهد. وبعدما أوعز إليّ بذلك ثلاث مرّات وأربع، انتهى به الأمر إلى القول لي إنّ العمق كافٍ، وأمرني أن أبني بعدئذ من غير جهد، لأنّ كلّ عناء قد زال، فالبناء يتمّ من غير جهد. وتشهد الأحداث لهذه النبوءة، فقد جرت أمور تفوق الطبيعة.

مضى من هناك وذهب إلى جماعة من النسّاك في الجوار،

وانضمّ إليهم وأقام معهم عامين،[1] فرغب في زيادة من الفضيلة، فمضى إلى تلك القرية التي ذكرناها آنفًا».[2]

وكانت قد ازدهرت الحياة الرهبانيّة في تلك الناحية، وزارها ثيودورطس في العام ٤٢٥ فوجد في الدير وما حوله مائة وخمسين راهبًا، وفي دير برج السبع، على بعد كيلومترات منه، ثمانين راهبًا. وليست هذه الكثرة بالأمر العجيب، فقد كان الإيمان المسيحيّ حبًّا في قلوب أهل الشرق بحيث كانت كلّ أسرة ترسل إلى الدير ولدًا من أولادها، وهناك مَن أرسل ولدين أو ثلاثة. وإذا فقد الرجل زوجتَه دخل الرهبانيّة ودخلها معه أولاده. وكان جميع أهل البلاد من المسيحيّين.

واصل ثيودورطس كلامه فكتب:

«كان رجلا الله العظيمان عمانيوس وأوسابيوس قد اتّخذا لهما مكانًا للنسك عند تلّعدا (تلعاده) ولكن رجل الله سمعان لم يذهب إليهما بل إلى مكان نسك آخر هو فرع له (دير برج السبع).

---

(١) العامان ٤٠١، ٤٠٢.

(٢) قرية يقال لها في أيّامنا تلعاده، أي تل العَدْوِ، من عدا يعدو، ركض، لأنّها مبنية على مرتفع شديد الانحدار، وهي على بعد نحو ٤٧ كيلومترًا من حلب إلى الغرب من جهّة الشمال.

إفراط سمعان في التقشّف وطرده

وصل إليه ذلك البطل في التقوى سمعان، فقضى في الكفاح عشرة أعوام[1] وكان يكافح معه ثمانون (من الرهبان) فكان يفوقهم جميعًا. كان هؤلاء يتناولون الطعام بعد انقضاء يومين، وأمّا هو فكان يبقى الأسبوع كلّه من غير أن يأكل شيئًا، فاستاء منه الرؤساء، ولم يكفّوا عن محاربته وهم يقولون إنّ تصرّفه مخالف للنظام، فلم يستطيعوا إقناعه بكلامهم، ولا أن يضعوا حدًّا لحماسته. وقد سمعتُه يروى هو بنفسه، وسمعتُ القائم في الوقت الحاضر على القطيع (رهبان الدير) يقول إنّ سمعان أخذ حبلاً من ليف النخل، وكان خشنًا جدًّا، وربط به وسطه لا فوق ثيابه، بل وضعه على جلده، وشَدَّه شدًّا وثيقًا حتّى إنّه تقرّح كلّ ما حوله. وقضى أكثر من عشرة أيّام على هذه الحال، وازداد القرح سوءًا، وأخذت قطرات من الدم تسيل منه، فرآها بعضهم وسأله عن ذلك الدم. ولّما قال له إنّه ليس به مكروه، مرّر صاحبه في الكفاح يده عنوة على المكان، وعرف السبب، فأخبر الرئيس، فوبّخه الرئيس لوقته، وأسدى له النصح، وذمّ قساوة هذا التصرّف. ولم يستطع فكّ الحبل إلاّ بعد الجهد، ولم يتمكّن مع هذا كلّه

---

(١) من ٤٠٢ أو ٤٠٣ إلى ٤١٢ أو ٤١٣.

من أن يقنعه بأن يعالج ذلك القرح بشيء من الدواء. ورأوه يقوم بأعمال أخرى على مثال ذلك، فدعوه إلى مغادرة الدير، لئلاّ يكون سبب الهلاك لأناس أضعف منه بنية يحاولون القيام بما يفوق طاقتهم.

سمعان في الجبّ

«فذهب إلى الأماكن المقفرة من الجبل، فوجد جبًّا لا ماء فيه وليس بكثير العمق فنزل فيه ورفع أناشيده لله. ومضت خمسة أيّام، فندم رؤساء الدّير على ما فعلوا، فأرسلوا اثنين وأمروهما بالبحث عنه والعودة به، فجالا في الجبل يسألان أناسًا يرعون المواشي هل أبصروا امرأً لونه كذا ويلبس ثيابًا كذا. فلمّا دلّهما الرعاة إلى الجبّ، أخذا يصيحان لوقتهما بأعلى صوتهما، ثمّ أتيا بحبل وأصعداه بكثير من الجهد، لأنّ الصعود ليس بسهولة النزول».

في تلّ نيشين

أقام سمعان عشر سنوات في برج السبع، ثمّ مضى في السنة ٤١٣ إلى قرية «تل نيشين» ومعناه «تل النساء» وحرّفه الذين كتبوا باليونانيّة فقالوا تلانيسوس، ثمّ أهمل الناس ذلك الاسم وقالوا «دير سمعان» إكرامًا للناسك القدّيس الذي أقام

هناك ثلاث سنوات قبل أن يصعد إلى حيث عاش معظم حياته في مكان قريب يقال له في أيّامنا «قلعة سمعان».

كتب ثيودورطس: «قضى بعض الوقت عند هؤلاء النسّاك، ثمّ مضى إلى قرية تلانيسوس في أسفل القمّة التي هو الان مقيم عليها. فقد وجد هناك كوخًا صغيرًا فقضى فيه ثلاث سنوات وهو حبيس. وطمع في أن يزيد كنزه من الفضيلة زيادة مطّردة، فرغب في أن يبقى أربعين يومًا من غير طعام، أُسوة برَجُلَي الله موسى وإيليّا. وكان باسوس العظيم الشأن يسير في ذلك الوقت في قرى كثيرة متنقّلاً من الواحدة إلى الأخرى، ليتفقّد الكهنة، فحاول سمعان إقناعه ألاّ يترك شيئًا عنده (عند سمعان) وأن يطلي باب بيته بالطّين، فنبّهه باسوس إلى صعوبة ذلك العمل، ونصح له ألاّ يعدَّ الانتحار فضيلة، فهو أكبر الآثام وأعظمها. فقال: «إذاً، يا أبت. ضع لي أنت ههنا عشرة أرغفة وإبريق ماء، فإذا رأيتُ أنَّ جسمي يحتاج إلى طعام، فسوف أتناولها» فكان له ما طلب، فوُضع الطعام والشراب وطُلي الباب بالطين؛ ولّما انقضت الأيّام الأربعون، عاد العظيم الشأن رجل الله باسوس، وأزال الطين واجتاز الباب إلى الداخل، فوجد الأرغفة على عددها ووجد الإبريق ممتلئًا من الماء، وأمّا سمعان فوجده ملقًى على الأرض لا يقوى على التنفّس ولا الكلام ولا الحركة. فطلب باسوس

إسفنجة فبلّل بها فم سمعان وغسله، ثمّ قدَّم له الأسرار الأٰلهيّة، فاستعاد بها قواه ونهض قائمًا هو بنفسه. وتناول شيئًا من الخسّ البرّيّ والهندباء وما أشبه من البقول، وهو يمضغها على مهل ثمّ يبتلعها. فدهش باسوس العظيم الشأن غاية الدهش وعاد إلى قطيعه (الرهبان) وروى هذه الأعجوبة العظيمة. فقد كان يرعى شؤون مائتين من الأخوة.

سمعان يصوم الصوم الكبير

«ومُنذ ذلك الزمن إلى اليوم»[1] مَرَّ ثمانية وعشرون عامًا وهو يبقى في كلّ سنة أربعين يومًا من غير طعام، وقد أزال الزمان والتمرّس كثيرًا من التعب. فقد كان من عادته في الأيّام الأولى، أن يظلَّ واقفًا وينشد التسابيح لله، وكان جسمه من بعد ذلك لا يقوى على الوقوف لإمساكه عن الطعام، فيقوم بالعبادة وهو قاعد، بل كان في الأيّام الأخيرة يقوم بها وهو مستلقٍ. وكانت قوّته تضعف شيئًا فشيئًا وتزول، فيُضطَرّ إلى أن يَضَّجع نصفَ ميت. ولكنّه لّما أقام على العمود وأبى النزول منه، اخترع وسيلة أُخرى ليبقى واقفًا: ذلك بأنّه شَدَّ إلى العمود خشبة وربط جسمه إلى الخشبة بحبال، وقضى الأيَّام الأربعين على هذه الحال. ثمّ أتاه من العلاء نعمة أكثر

(١) إلى السنة ٤٤٤ التي فيها كتب المؤلّف سيرة سمعان.

غزارة، فلم يحتج بعدئذ إلى ذلك العون (الخشبة) بل وقف الأيّام الأربعين من غير أن يتناول طعامًا، تقوّيه حميَّته والنعمة الإلٰهيّة.

في قمّة الجبل

«قضى، كما قلت، في ذلك الكوخ الصغير ثلاثة أعوام ثمّ جاء فسكن تلك القمّة الشهيرة وأمر بأن يُقام سياج مستدير، وأعدَّ سلسلة من الحديد طولها عشرون ذراعًا. فربط طرفها الواحد بصخرة كبيرة، والطرف الآخر برجله اليُمنى، حتّى إنّه، لو أراد الخروج من تلك الحدود، لما استطاع. وصرف وقته كلّه وهو في الداخل لا ينفكُّ يسمو بمخيَّلته إلى السماء، ويجهد في تأمّل الأمور السماويّة العُلويَّة، لأنّ السلسلة لم تمنع ذهنه التحليق في العلاء. وفي ذلك الوقت وُكِل إلى ملاطيوس المكرّم أن يتفقّد ناحية مدينة أنطاكية، وكان رجلاً ذا فطنة، متَّقد الذهن، متحلِّيًا برأي حصيف، فقال: إنّ الحديد غير ضروريّ لأنّ منطق العقل كافٍ ليوثق الجسم، فأذعن له (سمعان) وتقبَّل النصيحة بخضوع، واستدعى حدَّادًا وأمره أن يفكّ القيد، ولكن لمّا كان قد وُضع على السَّاق جلدٌ، لئلاّ يؤذي الحديدُ الجسم، فلم يكن بدٌّ من تمزيقه أيضًا، لأنّه خِيط من طرفيه، فرأوا، على ما قيل، أكثر من عشرين بِقّة

كبيرة مختبئة في الجلد. وقال ملاطيوس المعظَّم إنّه رأى ذلك بأُمّ عينه، وقد ذكرتُه أنا لأظهر به أيضًا عظيم صبر ذلك الرجل، فقد كان يسعه بسهولة أن يضغط على الجلد ويقتل البقّ كلّه، لكنّه تحمّل قرصاته المزعجة، ساعيًا إلى ترويض نفسه في الأمور الصغيرة ليخوض معارك أعظم منها.

شهرة سمعان وعجائبه

«ذاع ذكره في كلّ مكان، وأقبل عليه الناس، لا أهل الأماكن المجاورة فحسب، بل المقيمون على بعد مسيرة عدَّة أيّام، فأتوا بالمُقعَدين، وطلب آخرون الشفاء للمرضى، والتمس غيرهم أن يصيروا آباء،[1] وتوسّلوا أن يحصلوا عن يده على ما لم يحصلوا عليه من الطبيعة. فإذا حصلوا على ما طلبوا، عادوا فرِحين وأذاعُوا ما نالوا من الإحسان، فأرسلوا عددًا مضاعفًا من الذين يطلبون الخيرات عينها. وهكذا أقبل جميع الناس من كلّ مكان، حتّى صار كلّ طريق أشبه بنهر، فأصبح المرء يرى بحرًا من البشر يجتمع في ذلك المكان، بما يصبّ فيه من أنهار تجري من كلّ جهّة، فلا ينصبّ أهل مملكتنا وحدهم، بل ينصبّ أيضًا بنو إسماعيل والفرس

(١) طلب المصابون بالعقم أن يلدوا البنين.

والأرمن الذين في حكمهم والإيبيريّون[٢] والحِمْيريُّون[٣] والشعوب الأبعد منهم في الداخل. وجاء أيضًا أناس من أقصى الغرب: من الإسبانيّين، والبريطانيّين، والغوليّين،[٤] الذين يسكنون ما بين تلك البلاد. وأمَّا الإيطاليّون، فلا حاجة إلى ذكرهم، فقد أصبح الرجل (سمعان) مشهورًا جدًّا في رومة العظمى، على ما قيل، حتَّى إنَّ صورًا صغيرة نُصبت على عمود في مدخل جميع الحوانيت، لينالوا به هناك حراسة لهم ووقاية.

(٢) الأقوام في ما بين البحر الأسود وبحر قزوين.
(٣) عَرَب جنوب الجزيرة العربيّة.
(٤) الفرنسيّون الأقدمون.

سمعان على العمود

«كان عدد القادمين لا يُحصى، وكانوا يحاولون أن يلمسوه وأن يجنوا بركة من معاطفه الشهيرة المصنوعة من الجلد، فَعَدَّ بادئ ذي بدءٍ ذلك الإفراط في التكريم غير معقول، فضلاً عن أنَّ ذلك التصرُّف سبَّب له إزعاجًا لا يُطاق، فخطر له أن يقف على عمود، فطلب في أوّل الأمر، أن يُقطع له واحد طوله ستّ أذرع. وبعد حين اثنتا عشرة ذراعًا ثمّ اثنتان وعشرون، وأمّا الآن فطوله ستٌّ وثلاثون. ذلك بأنّه يصبو إلى أن يطير نحو السماء، ويغادر هذا المسكن الأرضيّ.

«وإنّي أعتقد أنّ هذا الوقوف لم يحصل إلاّ بتدبير إلهيّ، ولذلك أدعو الذين يذمّونه إلى لجم لسانهم فلا يَدَعوه يشطّ على غير هدى، ويعتبروا كم مرّة أتى الربُّ بمثل هذه الأمور لخير القوم الفاترين. فقد أمر أشعيا أن يسير عريانًا حافي القدمين،[1] وإرميا[2] أن يشدّ وسطه بزنّار وأن يبلِّغ المؤمنين

---

(١) أشعيا ٢٠/٢.

(٢) إرميا ١/١٧.

وهو على هذه الحالة، ومرّة أخرى أن يجعل حول عنقه طوقًا من الخشب،[٣] ثمّ من الحديد،[٤] وأمر هوشع أن يتزوّج بَغيًّا،[١] ومرَّة أخرى أن يُحبَّ امرأة عاهرًا زانية؛[٢] وأمر حزقيّال أن يضَّجع على جنبه الأيمن أربعين يومًا، وعلى جنبه الأيسر مائة وخمسين يومًا،[٣] ومرَّة أخرى أن ينقب جدار البيت فيخرج منه هاربًا ويظهر بمظهر الأسير،[٤] ومرَّة غيرها أن يشحذ حدَّ السيف ويحلق به رأسه ويقسم شعره أربعة أقسام ويجعل بعض الشعر لهذا، وبعضه الآخر لذاك.[٥] لقد أمر سيِّد العالمين بكُلٍّ من هذه الأعمال لكي يجمع، بما فيها من غرابة المنظر، الذين لا يؤمنون بكلامه ويأبون الإصغاء إلى النبوءة. فيهيّئهم للاستماع إلى وحي الله. فمَن لا يدهش عندما يرى رجلاً من رجال الله يسير عريانا؟ ومَن لا يودُّ معرفة سبب ذلك؟ ومَن لا يسأل لماذا قَبِل نبيٌّ أن يساكن بغيًّا؟ فكما أنَّ إله العالمين أمر بالقيام بكلِّ هذه الأعمال، رغبة

---

(٣) إرميا ١/٣٤.
(٤) إرميا ١٠/٣٥ ـ ١٤.
(١) هوشع ٢/١.
(٢) هوشع ١/٣.
(٣) حزقيّال ٤/٤ ـ ٦.
(٤) حزقيّال ٤/١٢ ـ ٥.
(٥) حزقيّال ١/٥ ـ ٤.

منه في مساعدة الذين يعيشون في الفتور، كذلك أنشأ هذا المنظر الجديد الغريب لكي يجلب بغرابته جميع الناس، فينظروا إليه، ويُقنع الزوّار بتقبّل النصح الموجَّه إليهم، لأنَّ ما في المنظر الجديد يصير ضمانًا كافيًا للعقيدة، والزائر الذي أتى ليرى ينصرف وقد تعلَّم الأشياء الإلٰهيَّة. وكما أنَّ الذين كان لهم أن يصيروا ملوكًا على الناس، يبدِّلون حينًا بعد حين صورة النقود، فينقشون الأسود تارة، وصور النجوم والمبشِّرين بالنصر تارة، ويحاولون مرّات أخرى زيادة ثمن النقد الذهبيّ بغرابة الصورة المنقوشة فيه، فكذلك ألبس ملك العالَمين التقوى هذه الصور الجديدة وهذه الأشكال المختلفة من التصرُّف، لينشِّط للحمد لا ألْسِنة الأطفال في الإيمان فحسب، بل ألسنة المرضى في الإيمان.

فائدة العمود

«وليست الأقوال هي التي تشهد بأنّ الأمور تجري هكذا. ولكنَّ الأحداث هي التي تنادي بذلك. فإنّ بني إسماعيل، وعشرات الآلاف منهم عبيد ظلمات الكفر، قد تلقّوا النور من وقوفه على العمود. فقد رأيتُهم أنا بأمّ عيني وسمعتهم ينبذون كفرهم ويتقبّلون معًا تعليم الإنجيل. وتعرَّضتُ مرّة لخطر جسيم، إذ أمرهم سمعان أن يدنوا منّي لينالوا بركتي

الكهنوتيّة، وقال لهم إنّهم سيجنون منها كسبًا عظيمًا. فوثبوا معًا وثبة وحشيّة، وجذبني بعضهم من الأمام، وغيرهم من الوراء، وآخرون من جانبي، في حين أنّ الذين على بعد أرادوا أن يجتازوا الآخرين ومدّوا أيديهم، فمنهم مَن شدَّ لحيتي، ومنهم مَن أمسك بثيابي، وكادوا يخنقوني لولا أنَّه صاح بهم ففرَّقهم جميعًا. هذا هو الخير الذي فجَّره العمود موضوع سخرية الهازئين. وذلك هو شعاع معرفة الله الذي أنزله على فهم البرابرة. وإنّي أعرف حدثًا آخر من هذا النَّوع وقع عن يد هؤلاء الناس. فإنَّ قبيلة تَوَسَّلتْ إلى رجل الله أن يرسل دعاءً وبركة إلى زعيمهم. ولكنَّ قبيلة أُخرى كانت حاضرة، فقاومت قائلة إنّه لا ينبغي إرسال تلك البركة إلى ذلك الزعيم، بل إلى رئيسها هي، لأنّ الأوَّل ظالم في حين أنَّ الآخر خالٍ من الظلم، فوقع خصام طويل، ثمّ منازعة كما يكون الأمر عند هؤلاء البرابرة، فانتهى بهم الأمر إلى أن هجم بعضهم على بعض. وأمّا أنا فقد عمدت إلى نصحهم بكلام كثير ليخلدوا إلى السكينة، لأنَّ بوسع رجل الله أن يمنح البركة هذا وذاك. ولكنّ أُناسًا كانوا يقولون إنّه لا ينبغي أن ينالها هذا، في حين أنّ غيرهم يحاولون حرمانها الآخر. فأنذرهم سمعان من فوق عموده وسمّاهم كلابًا[1] ولم يطفئ

---

(١) متّى ٦/٧.

خصامهم إلاّ بعد الجهد. لقد رويتُ هذه الأشياء لأنّي أردت أن أُظهر إيمان نفوسهم. فلو لم يؤمنوا أنَّ لبركة رجل الله قوَّة عظيمة، لما تصرَّفوا فيما بينهم تصرُّف المجانين.

شفاء مقعد

«ورأيتُ مرّة أخرى أعجوبة مجيدة. فقد دخل امرؤ، وكان هو أيضًا زعيمَ قبيلة من الأعراب. وسأل رجلَ الله أن يُسعف رجلاً أُصيب بشلل في جسمه وهو في الطريق. قال إنّ العلَّة نزلت به عند قالّينيقوس،[٢] وهي قلعة عظيمة، فلمَّا حُمِلَ إلى حلقة الناس، أمره سمعان أن ينبذ كفر آبائه، فأطاع بفرح وأتمَّ ما أُمِر به. فسأله سمعان هل يؤمن بالآب والابن الواحد والروح القدس، فأعلن أنّه يؤمن، فقال: «أمّا وقد آمنتَ بهذه الأسماء، فانهض قائمًا». فلمّا نهض قائمًا أمره أن يحمل زعيم القبيلة إلى خيمته، وكان طويل القامة، فأخذه ومضى، فلهجت ألسنة الحاضرين بتسبيح الله. إنّ سمعان أمر ذلك على مثال الربّ الذي دعا المقعد إلى أن يحمل سريره،[٣] ولكن لا يقولنّ أحد إنّ هذا التمثُّل هو انتحال السلطة. فقد قال: «مَن آمن بي يعمل الأعمال التي أنا أعملها، بل يعمل

---

(٢) الرقّة على نهر الفرات.
(٣) متّى ٦/٩.

أعظم منها».[1] لقد رأينا هذا الوعد يتحقّق: فإنَّ ظلَّ الربّ لم يُجرِ أُعجوبة في مكان من الأماكن، في حين أنَّ ظلَّ بطرس العظيم قضى على الموت وبدَّد الأمراض وطرد الشياطين.[2] ولكن الربَّ هو الذي أجرى هذه الأعاجيب على يد عباده، وكذلك إن سمعان في الوقت الحاضر يدعو باسم الربّ لِيُجري أعاجيب لا يُحصى لها عدد.

نبوءات سمعان

«ولم أكن شاهد عيان لأعاجيبه فحسب، بل كنت شاهد سماع لإنبائه بما سيحدث في المستقبل فقد أنبأ قبل سنتين بالقحط الذي حدث في تلك السنة، وبالمجاعة وبالوباء الذي صحبها. قال إنّه رأى عصًا مرفوعة فوق رؤوس الناس، وأنذرهم بالضربات التي تنزل بهم. وأنبأهم بهجوم ما يقال له الجراد، وأنّه لن يوقع أذى كبيرًا، لأن حُبَّ الله للإنسان سيرافق العقاب. وما إن مضت ثلاثون يومًا حتّى انقضّ عدد من الجراد لا يُحصر، فحجب أشعّة الشمس، ونشر الظلام، وذلك ما رأيناه جميعًا وتحقّقناه. ولكنّه أوقع الأذى بعلف الحيوانات وحده، ولم يُصب بشيء من السوء قوت البشر.

---

(١) يوحنّا ١٤/١٢.

(٢) رسل ٥/١٥.

«وكنت عرضة لعداء بعضهم فأخبرني سمعان بأنَّ خصمي سيزول عن الوجود قبل خمسة عشر يومًا، وقد علَّمتني الخبرة صدق نبوءته. ومع أنّي أعرف كثيرًا من مثل هذه الأشياء، فإنّي أتركها جانبًا دفعًا للإسهاب، وإنّ ما ذكرتُ كافٍ لإظهار كيف يرى ذهنُه الأمور الروحيَّة.

شهرته عند ملك الفرس

«إنَّ شهرته عظيمة حتّى عند ملك الفرس، فقد روى السفراء الذين زاروه أنّه كان يبحث باهتمام عن سيرة ذلك الرجل (سمعان) وعن طبيعة أعاجيبه، ويقال إنّ زوجته طلبت زيتًا شرَّفْته بركتُه، وتقبَّلَته قبولَها لهدية عظيمة. وأُخِذَت حاشية الملك كلّها بصيته، مع أنَّه بلغها ما افتراه السَّحرة من كذب كثير، فقد بحثَت عنه بحثًا دقيقًا، ولمّا عَلمت أخباره، دَعَتْه رجل الله. وأمّا سائر الناس فكانوا يذهبون إلى سائقي البغال في القوافل والخدم والجنود، فيقدِّمون لهم المال ويسألونهم أن يحصلوا لهم على بركة الزيت.

ملكة بني إسماعيل

«وكانت ملكة بني إسماعيل عاقرًا، وكانت ترغب في البنين، فأرسلت أوَّل الأمر أناسًا من العظماء، تتوسّل أن تصير

أُمًّا. ولّما قالت ما طلبت وولدت كما كانت تشتهي، أخذت الملك الذي ولد لها وأسرعت إلى رجل الله الكبير السنّ. ولّما لم يكن يؤذَن للنساء بالدخول، بعثت بالطفل إليه، وتوسَّلت إليه أن تنال بركته، فقالت: «إنّ هذه الحزمة هي حزمتك، إنّي قد حملتُ، وأنا أذرف الدموع، البذر الذي طلبتُه في صلاتي. وأمّا أنتَ فقد جعلت من هذا البذر حزمة، إذ جلبتَ عليها النعمة الإلٰهيّة».

ولكن حتّامَ أحاول سبر غور المحيط الأطلسي؟ فكما أنَّ الإنسان يعجز عن سبره، فكذلك ما يقوم به سمعان كلَّ يوم يفوق كلَّ رواية.

صلاة سمعان وصبره

«وإنّي معجب بصبره أكثر منّي بجميع تلك الأمور. فإنّه واقف ليل نهار بمرأىً من جميع الناس. ولقد أزال الأبواب وهدم قسمًا غير قليل من السياج وهو واقف منظرًا جديدًا غريبًا لجميع الناس. فهو يقف مدّة طويلة تارة، ويركع كثيرًا تارة، ويقدِّم السجود لله. وإنّ كثيرًا من الحاضرين يُحصون عدد ركعاته. وقد أحصى واحد ممّن كانوا معي ١٢٤٤ ركعة ثمّ تَعِبَ فتخلّى عن عدِّها. وعندما يركع سمعان فإنّه يُدني جبهته من أصابع قدَميه، ذلك بأنّ معدته لا تتلقّى من الطعام

إلاّ القليل مرَّة في الأسبوع فيسهل على ظهره الانحناء. ويقال إنّ الوقوف أدّى إلى حدوث قرح في رجله، فلا ينفكّ يسيل منه قدر من القيح كبير. ومع ذلك لم تثنه محنة من المحن عن سلوكه سبيله في الحكمة، بل هو يتحمَّل رابط الجأش ما يأتيه من الآلام بقصد منه أو بغير قصد، وهو يتغلَّب على هذه وتلك ببأسه. وقد اضطُرَّ ذات يوم إلى أن يُري بعضَهم قرحه، وسأروي السبب. فقد جاء من رابان[1] رجل ذو شأن، وقد أولي الشرف بأن يكون خادم المسيح.[2] فلمّا وصل إلى تلك القمّة المشهورة قال: «قل لي باسم الحقّ الذي هدى إليه النوع الإنسانيّ، أأنت إنسان أم ملاك؟» فاضطرب الحضور لهذا السؤال، فأمرهم سمعان أن يلزموا الصمت جميعًا، وقال لهذا الرجل: «لماذا سألتني هذا السؤال؟» فأجاب: «لأني أسمع جميع الناس يكرّرون القول إنَّك لا تأكل ولا تنام، وكلا الأمرين من خصائص الناس ولا يستطيع أحد له هذه الطبيعة أن يعيش حياته كلّها من غير طعام ونوم».

فطلب سمعان أن توضع سلّم على العمود ودعا الرجل إلى أن يصعد فيفحص أوّل الأمر يديه، ثمّ أن يدخل يده إلى ردائه المصنوع من الجلد وينظر لا إلى رجليه فحسب، بل إلى

---

(١) مرعشن، في تركيّا الآن.

(٢) شمّاس.

قرحه الفظيع أيضًا. فلمّا رأى الرجل مدهوشًا فداحة القرح وعلم منه أنّه يتناول الطعام، نزل من هناك وجاء إليّ فروى لي كلَّ شيء.

وهو في الحفلات الرسميّة يُظهر مظهرًا آخر للصبر، إذ يبقى من غروب الشمس حتّى عودتها إلى الأفق في الشرق، واقفًا طوال الليل، رافعًا يديه إلى السماء ولا يدع النوم يستهويه ولا الجهد يغلبه.

إرشاده للشعب

«وهو على جهوده العقليّة هذه، وجليل أعماله وكثرة الأعاجيب، متواضع النفس، كأنّه اخر جميع الناس شأنًا، وهو، فضلاً عن تواضع روحه، سهل المنال جدًّا، لطيف، عذب الحديث، يجيب كلَّ من يكلّمه أعاملاً كان أم شحّادًا أم فلاّحًا. وقد نال من المعلّم والمحسن العظيم موهبة التعليم، فهو يُسدي النصح مرّتين في كلّ يوم فيفيض في آذان السامعين كلامًا كثيرًا عذبًا، ويزوّدهم بعلم روح الله، فيحثّهم على النظر إلى السماء وعلى أن يطيروا إليها ويزهدوا في الدنيا، ويتصوّروا بمخيّلتهم الملكوت المنتظر، ويخافوا خطر جهنّم، ويزدروا أمور الأرض ويرجوا الخيرات المستقبلة.

سمعان يقيم العدل

«وبوسع المرء أن يراه يقضي بين الناس، ويصدر أحكامًا عادلة منصفة، وهو يقوم بهذه الأعمال وأمثالها بعد الساعة التاسعة.[1] ذلك بأنّه يصرف الليل كلّه، والنهار حتّى الساعة التاسعة في الصلاة. وبعد الساعة التاسعة يُلقّن أوّل الأمر الحاضرين كلام الله ثمّ يتقبّل طلبة كلّ امرئ. ويُجري بضعة أعمال شفاء، ويحلّ المنازعات. وعند غروب الشمس يشرع يناجي الله طوال وقته.

إهتمامه بشؤون الكنيسة

«ومع أنّه يعيش على هذه الحال ويقوم بجميع هذه الأعمال، فإنّه لا يُهمل الاهتمام بشؤون الكنائس المقدَّسة. فهو يكافح كفر اليونانيّين تارة، ويهدم جرأة اليهود تارة، ويبدّد عصابات أهل البدع تارة. وكتب ذات يوم إلى الملك في هذه الموضوعات. وأثار يومًا آخَرَ حميَّة الحكّام في سبيل الله، وحثَّ مرّات أخرى رعاة الكنائس أنفسهم على مضاعفة اهتمامهم برعاياهم.

---

(١) الثالثة بعد الظهر بحسب التوقيت في أيّامنا.

الخاتمة

«لقد رويتُ هذه الأشياء محاولاً أن أعرِّف المطر بالكلام على قطرة ماء، وإنّي أُذيق قرّاء هذا الكتاب حلاوة العسل بطرف الإصبع. ولكنّي لا أزعم أنّي أرويها كلّها، بل أُظهر ببعض الأمثلة طبيعة كلّ قدّيس، فسيكتب آخرون، كما يستحقّ الأمر، مؤلّفات أكبر عددًا وأوسع من مؤلّفي هذا. وإذا بقي سمعان مدّة من الزمن بعدئذ، فسوف يضيفون أعاجيب أعظم. وإنّي أرغب رغبة شديدة وأسأل الله أن يثابر سمعان، بعون يأتيه من صلواته، على جهوده الصالحة، فهو زينة كلّ تقوى وسناؤها. وأرغب أن أسير أنا سيرة حسنة النظام وأن يكون سلوكي مستقيمًا موافقًا للإنجيل».

هكذا تنتهي سيرة سمعان العمودي كما رواها ثيودورطس أسقف قورش في كتابه.

آثار سمعان

نُسب إلى سمعان عدّة رسائل يرجّح أنّها منحولة، متأخّرة، وضعها مؤلّفوها لكي يظهروا أنّ سمعان كان على رأيهم في المنازعات اللاهوتيّة التي حدثت في ذلك العصر، وموضوعها مَن هو المسيح: أهو نبيّ عظيم فحسب، أمّ إنّه إله وإنسان،

وما الصلة بين الله والإنسان في شخصه. وقد عُقد مجمعان عامَّان، أوّلهما في أفسس في السنة ٤٣١، والآخر مجمع خلقيدونية في السنة ٤٥٣، وسمعان طوال هذه المدّة على العمود يعبد الله ويقهر جسده ويهدي الناس إلى الله. ولا شكّ في أنّه سمع بالمجمعين وعرف، ولو على وجه غير مفصّل، ما اشتدّ من الجدل في الموضوع، وقد حاول غير واحد أن يقحمه في ذلك الجدل لكي يستخدم اسمه لكسب المؤيّدين لرأيه. ولكن أنَّى لذلك الناسك أن يُبدي رأيًا خاصًّا به، وهو لم يتعلَّم علم اللاهوت، بل تقبّل العقيدة المسيحيّة ببساطة كما تلقّاها من أبويه ومرشديه. قيل إنّ تيودورطس صديقه أطلعه على مسألة الطبيعتين في المسيح، فأصغى له ثمّ قال إنّه يؤمن بالآب والابن والروح القدس وأبى التدخّل في المجادلة الشائعة آنذاك. ومهما يكن من أمر، فليس ما يؤيّد أنّه كان على رأي القائلين بطبيعة واحدة، ويُرَجّح الأب البولندي العالم ديلهي أنَّ سمعان كان على رأي المجمَعين المذكورين أعلاه. وقد أثبتت البحوث الحديثة أنَّ الجدال كان يتناول العبارة أكثر منه المعنى، وأنّ المسيحيّين اختلفوا في الألفاظ والتعبير لا في الجوهر. كم ضاع من الوقت والجهد من غير جدوى، ويا لسوء الحظّ. يا ليت مسيحيّي ذلك العهد اقتدوا بسمعان فصلّوا وتعبّدوا وتقشّفوا أكثر ممّا فعلوا،

وجادلوا بعضهم بعضًا أقلّ ممّا فعلوا. أجل إنّ المعرفة مفيدة، إذا اقترنت بالمحبّة. وأمّا طلب المعرفة في سبيل المنازعات والمماحكات والخصام، فهو شرّ وخسران. صدق القدّيس بولس حيث قال: «إنّ المعرفة تملأ صاحبها كِبْرًا، والمحبّة هي التي تبني». (١ قور ٨/١).

موت سمعان وتكريمه

توفّي سمعان يوم الأحد ٢٦ تمّوز ٤٥٩ وهو في الإحدى والسبعين من عمره بعدما قضى أكثر من نصف حياته فوق العمود. إنّ حياته طوال هذه المدّة معجزة تغلُّب الروح على الجسد في سبيل حبّ الله.

لمّا شرع سمعان في حياته على العمود بلغ خبره الرهبان المصريّين، فاستنكروا تصرّفه، وأرسلوا إليه كتابًا يُنزل به الحرم. ولكنّهم لمّا اطّلعوا على ما كان يتحلّى به من مختلف الفضائل، رجعوا عن رأيهم وبادلوه الاشتراك في المحبّة. صدق مَن قال: الناس أعداء ما جهلوا.

روى أنطونيوس الذي كتب السيرة اليونانيّة الثانية أنّ سمعان معلّمه لم يسلّم ذات يوم على واحد من الزوّار الذين جاءوا ليطلبوا بركته، فصعد إلى العمود فرأى القدّيس ميتًا.

فلم يخبر أحدًا بالأمر دفعًا للبلبلة بل بعث رسولاً إلى مطران أنطاكية مرطيربوس، وإلى رئيس الحرس أربادوريوس، فحضرا في الغد وجاء أربادوريوس على رأس ستمائة جندي، فصعد ثلاثة أساقفة إلى أعلى العمود وقبّلوا ثياب القدّيس وهم يرتّلون المزامير. ووُضع جثمانه الطاهر في تابوت من الرصاص، وأُنزل من العمود فأقبل الناس من كلّ حدب وصوب وفيهم البدو على الجمال يتقلّدون السلاح وقد عزموا على اختطاف الجثمان، إذا تركوهم يفعلون، ولكنّ القائد أربادوريوس كان حاضرًا وبإمرته قوّة رادعة.

إحتشد حول العمود جمع عظيم جدًّا وهم يحملون العطور والشموع والمشاعل، وصراخهم يرتفع في عنان السماء، تفجُّعًا على مَن كان لهم أبًا ومرشدًا وواعظًا ومعلّمًا وقاضيًا وطبيبًا لأرواحهم ولأجسادهم أيضًا. لقد انطفأ في أعلى العمود المنصوب على قمّة الجبل ذلك النور الساطع الذي أضاء للقريب والبعيد عشرات السنين، فكان كالشمعة التي تذوب لتنير الذين في الظلام؛ لقد ظلّ يُنير الناس ٣٧ عامًا. العاقر التي نالت بشفاعته نعمة الأمومة، تشقّ الجيب عليه، وهي تمسك بيدها الولد الذي حملته وولدته بعدما قصدت القدّيس وسألته أن يرفع الدعاء إلى السماء من أجلها. وأقبل المُقعَد الذي مشى بأمره كما مشى المُقعَد في كفرناحوم بأمر السيّد

المسيح. لقد شفى سمعان المرضى في حين أنّه ذاق الأمرّين من القروح التي تفشّت في جميع جوانب جسده. تقبّل هو في نفسه وجسده ما سأل الله أن يزيله عن غيره، والشعب لا ينسى الإحسان ويكرّم المحسنين.

نقل سمعان إلى أنطاكية

وُضع الجثمان على مذبح من الرخام تجاه العمود، فقبّل الميتَ جميعُ الأساقفة، ثمّ ساروا به إلى قرية يقال لها اليوم «شيخ الدير» في سفح الجبل، ثمّ وضعوا التابوت على عجلة وانطلق الموكب المهيب والمشيِّعون يحملون المشاعل ويحرقون البخور ويرتّلون المزامير وينشدون الأناشيد، فيتوافد أهل القرى التي على الطريق، فإذا بسيل من البشر يدفع بعضه بعضًا، زاحفًا إلى المدينة المسيحيّة العظيمة، مدينة القدّيسين بطرس وبولس الأولى قبل رومة، ومدينة يوحنّا الذهبيّ الفم قبل القسطنطينيّة، مدينة أنطاكية التي فيها سُمِّي تلاميذ يسوع مسيحيّين أوّل مرّة. وحدث ما لم يستغربه أحد، وقد جرى مثله كثير، إذ كان سمعان حيًّا، وهو أنّه شفى مسكينًا فاقد الرشد وأصمّ أخرس. إجتاز الموكب خمسين كيلومترًا سيرًا على الأقدام، وهو يتوقّف حينًا بعد حين، ليتمكّن الناس من تكريم جثمان القدّيس والتبرّك به، ولم يصل إلى أنطاكية إلاّ في آخر الأسبوع.

خرج أهل المدينة إلى لقاء الموكب فانضمّوا إليه وهم لابسون ثيابًا بيضًا، ويحملون في أيديهم الشموع والمشاعل. ووُضِع الجثمان أوّل الأمر في كنيسة قاسيانيوس، ثمّ نُقِل بعد شهر إلى كبرى كنائس المدينة.

وروى كاتب السيرة السريانيّة أنّ القيصر لاوون طلب نقل الجثمان إلى مدينته لأنّه، في رأيه، كنز ثمين، فتوسَّل إليه أهل أنطاكية ألاَّ يحرمهم إيّاه، قالوا: «لم يبقَ لمدينتنا أسوار، وقد جئنا به إلينا ليقوم مقام الأسوار ولكي يحمينا بصلواته». فتخلّى القيصر آخر الأمر عمّا أراده، وفي آخر القرن الخامس طلب أوّل العموديّين بعد سمعان الكبير، واسمه مار دانيال، من القيصر نقل جثمان مار سمعان إلى القسطنطينيّة فنُقل في حفلة عظيمة رأسها المطران وحضرها القيصر وجمع لا يُحصى عدده.

التكريم بعد الوفاة

لا أدَلّ على مكانة سمعان في قلوب الناس من البنايات الفخمة في تل نيشين، ويقال لها في أيّامنا دير سمعان، وفي القمّة التي فيها عاش على العمود، ويقال لها قلعة سمعان. شادوا في كلا الموضعين اللذين قدّسهما بعبادته وتقشّفه، جملة من البنايات تُعَدّ من أجمل ما شادته الأيدي في تاريخ البشر.

شرعوا في البناء فعمل آلاف من الناس بين مهندسين ونحّاتين ونقّاشين وبنّائين ونجّارين، وأنفقوا أموالاً طائلة بذلوها بسخاء، وساهم في تقديمها أصحاب السلطة الدينيّة والسلطة المدنيّة والأثرياء من أهل المدن والعمّال والفلاّحين أنفسهم. أرادوا أن يكرّموا جميعًا معجزة عصره، وقد نالوا عن يده خيرات من السماء لا يحصى لها عدد. بنايات جبّارة، بناها جبابرة لتكريم جبّار. فرغوا من بناء الكنيسة في ٤٧٦.

حيث لم يكن سوى عموده، وساحته لا تزيد على بضعة أمتار مربّعة، بُني نحو ١٢ ألف متر مربّع. فقد اتّخذوا عمود سمعان المركز ونقطة الدائرة لبناء مثمَّن الأضلاع مؤلَّف من خمس أقواس يُدخل من أربع منها إلى أربع كنائس كلّ واحدة منها في جهّة من الجهّات الأربع، على شكل صليب، وفي كلّ كنيسة ثلاثة أسواق، وكنيسة الشرق أطول من الثلاث الأخرى. وهناك الدير على شكل مثلّث وله ثلاث طبقات، وكنيسة تابعة له، وعلى بعد ٢٠٠ متر بيت المعموديّة وهو بناء مثمَّن الأضلاع في داخل مربّع، وإلى جانبه كنيسة، له ثلاثة أسواق. وكان الذين يُعَمَّدون يذهبون إلى الكنيسة بعد العماد، فيشتركون في القدّاس ويتقبّلون الأسرار المقدّسة. ولا غنى عن زيارة تلك الآثار الرائعة، والوصول إليها سهل المنال. وهي

على بعد ٣٥ كيلومترًا من حلب والطريق إليها حسنة. سبحان الله الذي اختار سمعان الأمّي لكي يكون عموده منارة للإيمان في حياته وبعد موته.

الخاتمة

لا عجب أن يدهش أهل عصرنا من عيشة سمعان على العمود. فقد دهش منها أهل عصره أنفسهم، كما أوضح ثيودورطس الذي ترجم له، وقد أورد عدّة أمثلة على الطرق العجيبة التي دعا الله أنبياءه وأصفياءه إلى سلوكها لكي ينبّهوا أذهان الناس ويهدوهم سبيل الحقّ. إنّ الروح يهبّ حيث يشاء (يوحنّا ٣/٨) وكيفما يشاء. والمواهب على أنواع، وأمّا الروح فواحد كما قال القدّيس بولس (١ قور ١٢/٤) وكلّ واحد يتلقّى من تجلّيات الروح لأجل الخير العام. وفي أيّامنا أخذ المواهبيون يتكلّمون بلغات ويُخْبرُون معجزات الشفاء، فاستغربهم المؤمنون أنفسهم أوّل الأمر ثمّ أيّدتهم أعلى السلطات الكنسيّة.

لم يبقَ من عمود سمعان في أيّامنا سوى كتلة صغيرة بيضاويّة الشكل وُضعت فوق القاعدة المربّعة. ذلك بأنّ المؤمنين عدّوا العمود ذخيرة فاقتطعوا منه كُلٌّ على قدر ما استطاع، ووصل الأمر ببعض الناس إلى أنّهم سحقوا ما أخذوه وجعلوه في الماء وشربوه. ومثل ذلك حدث لشجرة

كانت بالقرب من المكان الذي عاش فيه مار شربل في القرن التاسع عشر.

لم يعش سمعان على عمود عن سابق قصد وتصميم. فقد ترك كوخه في تل نيشين بعدما قضى فيه ثلاث سنوات وصعد إلى مرتفع يقال له اليوم قلعة سمعان، ينشد العزلة للصلاة والتعبّد والتقشّف؛ فسمع به الناس فأقبلوا عليه، فطلب أن يُنحت له في الصخر مربّع طول أضلاعه متران وارتفاعه ستّ أذرع أي نحو مترين، ولا يزال ذلك المربّع في مكانه. وظلّ الناس يأتونه ليسألوه فيجيبهم لأنّ محبّة الله أُفيضت في قلبه، ولا محبّة صادقة لله، إلاّ إذا اقترنت بمحبّة القريب ولا سيّما الساذج الضعيف. ولو اقتصر الأمر على الكلام لربّما لم يفكّر سمعان أن يرتفع أكثر من ستّ أذرع فوق الأرض، ولكنّ أناسًا مدّوا أيديهم ليلمسوا ثيابه ويتبرّكوا به، فطلب أن يُرفع عمود فوق المربّع الصخريّ، وكرّر طلبه ذلك مرّة ثانية ثمّ ثالثة حتّى تألّف العمود آخر الأمر من ثلاث أسطوانات إكرامًا للثالوث الأقدس وبلغ ارتفاعه ١٦ مترًا. عاش سمعان في أعلى العمود من غير سقف، فكان يغطّي رأسه بالأسكيم الرهبانيّ ليحميه من البرد والريح والحرّ، وكان قد اعتاد العيش في العراء في أيّام حداثته وشبابه، لأنّه كان راعيًا في جبال طوروس. ولم ينزل سمعان من على العمود إلاّ في

الوقت الذي لا بُدَّ منه لرفع الأسطوانة الأولى على المربّع ثمّ الثانية فالثالثة. كان سمعان يكثر من الصوم كما ورد في سيرته، ولا يأكل سوى القليل يأتيه به الذين يزورونه، كالفول والعدس والخبز والزيت، والبقل والأعشاب البرّيّة. ومع ذلك الشظف في العيش فقد تجاوز السبعين من العمر.

وكان غذاء سمعان الأوّل الصلاة والتعبّد ووعظ الناس. في القرن السادس عشر كتبت القدّيسة تريزيا ما يعبّر أحسن تعبير عن شعار سمعان، ذلك الشعار الذي لم يكتبه لأنّه كان أمّيًّا فحقّقه بحياته كلّها: «لِيَمُت فيَّ ذاك «الأنا» وليحيَ فيَّ آخر هو أكبر منّي أنا، وهو عندي خير منّي أنا، لكي أستطيع أن أخدمه. فليحيَ ويعطني الحياة. وليكن سيّدي ولأكن أسيرة. إنّ نفسي لا تريد حرّيّة غير هذه الحرّيّة. وكيف يكون حرًّا مَن كان غريبًا عن العليّ! إنّ الحبّ أقوى من الموت وقاسٍ مثل جهنّم».

إنّ الأب ماتّرن اليسوعيّ، وهو الذي ألّف كتاب: «مدن ميّتة في شمال سوريا»، كتب لمّا زار قلعة سمعان: «إنّنا تجاه أكبر الآثار المسيحيّة وأفخمها في الشرق، ولربّما في العالم كلّه. حتّى عندما يتوقّع المرء أن يرى شيئًا عظيمًا، فإنّ الدهش يستولي عليه حين يرى الخرائب الرائعة لذلك المعبد».

أحد الذين كرَّموا مار دانيال وهو أوّل عموديّ سوريّ بعد سمعان، نقش في عموده ليخلّد ذكره:

«بين السماء والأرض
وقف رجل لا يخاف الأرياح
التي تهبّ من كلِّ جهّة
واسمه دانيال».

إنّ ما قيل في دانيال يصحّ قوله في أوّل عموديّ، بل في كلّ عموديّ.

قال السيّد المسيح: «وأنا إذا رُفِعتُ من الأرض جذبتُ إليَّ الناس أجمعين» (يوحنّا ١٢/٣٢).

إرتفع سمعان فوق العمود فجذب إليه كثيرًا من الناس.

وقال القدّيس بولس: «أُسلكوا سبيل الروح ولا تقضوا شهوة الجسد لأنّ الجسد يشتهي ما يخالف الروح، والروح يشتهي ما يخالف الجسد... إنّ الذين هم خاصّة المسيح قد صلبوا جسدهم وما فيه من أهواء وشهوات» (غل ٥/١٦، ٢٤).

إنّ سمعان الكبير سلك سبيل الروح وكان من خاصّة المسيح، فصلب جسده على العمود ٣٧ سنة ليحيا فيه المسيح ويحيا هو في المسيح.

المراجع

المراجع العربية:

- حبيب زيّات: «الديارات النصرانيّة في البلاد الإسلاميّة»، مجلّة «المشرق»، تموز ـ أيلول ١٩٣٨.
- صبحي صواف: «قلعة سمعان» (بالعربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة)، حلب.
- الأب بولس يتيم: «مقالات في الآثار السوريّة»، ١٩٧٧، حلب.
- الأب بولس يتيم: عدّة مقالات طبعت في «نشرة الروم الكاثوليك لأبرشيّة حلب» من السنة ١٩٧٧ إلى ١٩٨١.

سيرة سمعان العموديّ

- وردت في كتاب ثيودورطس باليونانيّة؛ اعتمدنا طبعة

— Pierre CANIVET et ALICE LEROY: Théodoret de Cyr, *Histoire des Moines de Syrie, «Histoire Philotée»*; Texte grec et trad. française, Ed. du Cerf. Paris, 1977.

نقلناها إلى العربيّة في كتاب أصدرناه مع الأب بولس يتيم عنوانه: «أبطال الله، العموديّون في جوار حلب»، حلب، ١٩٨٣.

وفي ١٩٨٦ نقل المرحوم الأرشمندريت أدريانوس شكّور كتاب ثيودورطس وجعل عنوانه: «تاريخ أصفياء الله»، المطبعة البولسيّة (جونيه ـ لبنان)، ٢٨٥ صفحة، وسيرة سمعان في الفصل السادس والعشرين.

- سيرة سمعان العموديّ باليونانيّة ـ قيل إنّ الذي كتبها كان تلميذًا له يدعى أنطونيوس. وليس فيها شيء جديد كثير ـ وتجد خلاصتها في كتاب Delehaye المذكور أدناه.
- سيرة للقدّيس بالسريانيّة ورد فيها أشياء دقيقة لم ترد في السيرتين المذكورتين أعلاه، ولا يعرف اسم الكاتب. تجد خلاصتها في كتاب Delehaye المذكور أدناه.

— Pierre CANIVET, *Le monachisme Syrien selon Théodoret de Cyr,* Ed. Beauchesne, Paris, 1977.
— DELEHAYE, *Les Saints Stylites,* Bruxelles et Paris, 1923, 1962.
— J. LACARRIERE, *Les hommes ivres de Dieu,* Paris, 1961.
— J. MATTERN, *Villes Mortes de Syrie,* Beyrouth, 1944.
— I. PENA, P. CASTELLANA, R. FERNANDEZ, *Les stylites syriens,* Editions de la Custodie de Terre Sainte, Milano.
— G. TCHALENKO, *Villages antiques de la Syrie du Nord,* 1953–1958, 3 tomes.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
مار سمعان الكبير، مولده ونشأته	٨
سمعان على العمود	٢٠
موت سمعان وتكريمه	٣٣
الخاتمة	٣٩
المراجع	٤٣
فهرس المحتويات	٤٥

أنجزت **مطبعة دكّاش** طباعة هذا
الكتيّب في الخامش عشر من شهر
تشرين الثاني سنة ١٩٨٩

٦١ - ٣ - ٨٩/١١/١٥

موسوعة
المعرفة المسيحية

القدّيسون

١

القدّيس سِمعان العمُوديّ

بقلم
الأب يوسف قوشاقجي

دار المشرق
بيروت